مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

بخٍ بخٍ..!

إعداد : أمير سعيد السحار

رسوم : عبد الرحمن بكر



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

بَخٍ بَخٍ .. !![1]

كان ذلكَ فى السّنةِ الثّانيةِ منَ الهجرةِ ، وقد اجتمعَ شملُ الكافرينَ والمشركينَ ، وانتظمَ عِقدُهم ، وتوحّدتْ كلمتُهُم بعدَ شتاتٍ وفُرقةٍ ، واجتمعَ لهم الزّادُ والعُدّةُ والعَددُ ، واعتقدوا أنّهم بهذهِ الجموعِ الكثيرةِ ، والوفودِ العديدةِ الجمّةِ ، سيغلِبون المسلمين، هذه الفئةَ القليلةَ التى أخذ عددُها يتضاعفُ يومًا بعد يومٍ، ويتكاثرُ عامًا بعد عامٍ ، وكأنّما ينفخُ فى ذراريهم نافخٌ ، أو يبعثُ فيهم إلاه الكائناتِ بروحٍ من عندِه لا يعلمُها أحدٌ سواهُ .. !!

وإنّهم ليخشَون المسلمينَ أشدَّ الخَشيةِ ، ويرَون فيهم خطرًا على أموالهم وآلهتِهم ، فإنّ المسلمين مع قِلّتِهم قلوبٌ تتحرّكُ ، وأرواحٌ تتدفّقُ، وعزيمةٌ وثّابةٌ ، شجاعةٌ لا يقفُ فى سبيلِها شىءٌ كائنًا ما كان ، وإن الرجلَ يكونُ مشركا ثم يصبأُ ـ كما يقولون ـ أى يرجعُ عن دينِه ، ويَدَعُ عبادةَ الآلهةِ ، ويُسلمُ فلا يعبدُ إلا إلهًا واحدًا ، سيؤمنُ بمحمّدٍ وبأنبياءِ اللّهِ جميعًا ورسلِه السّابقين ، فيكونُ له شأنٌ آخرُ غيرُ شأنِه أيامَ كان يعبدُ آلهةً متعدّدةً ويَدينُ بدينِ الجاهليّة ، ويضربُ فى بَيداءِ الظّلامِ كما يضربون !

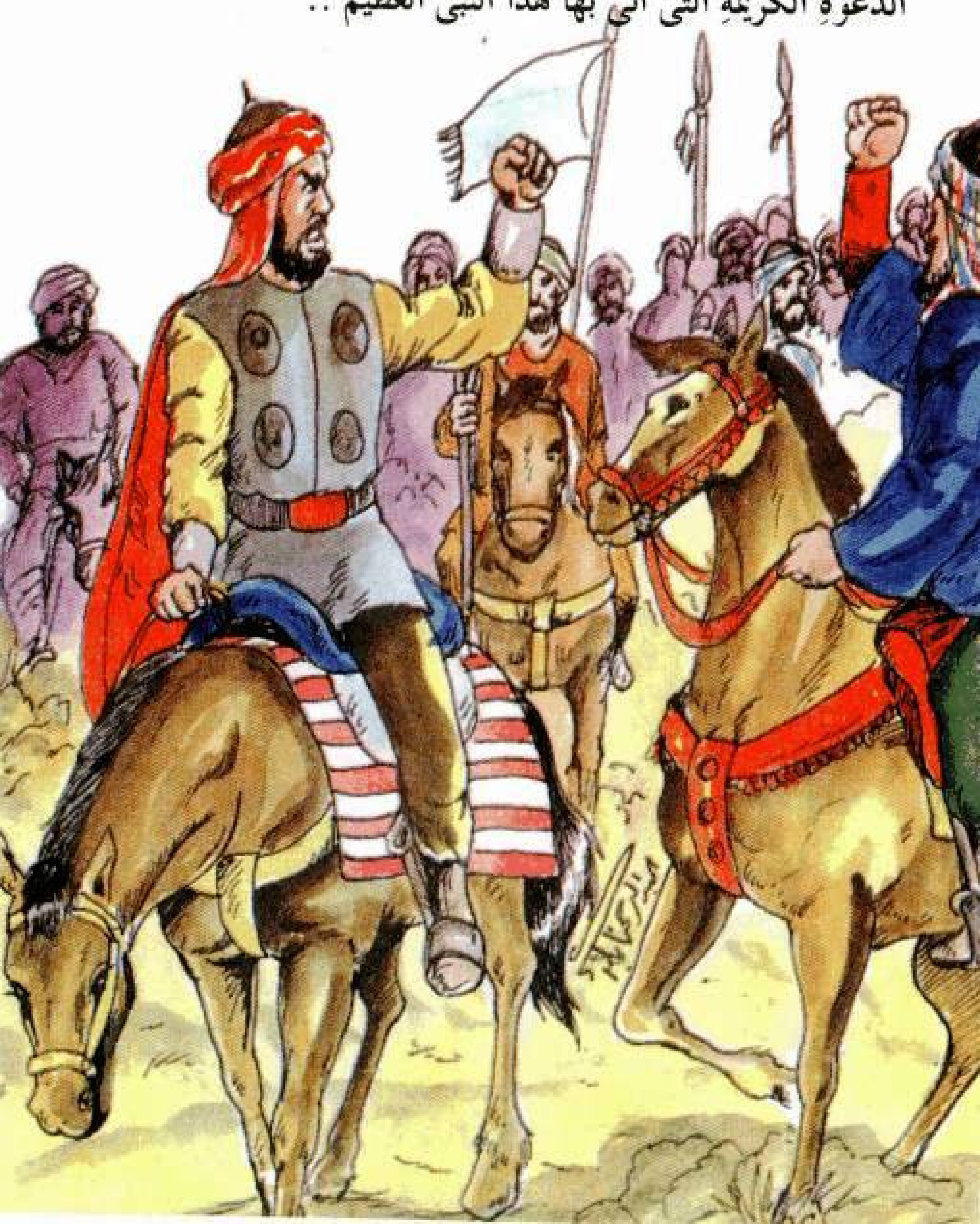
---

(١) بخ بخ أى حسنٌ حسنٌ

وإنّهم قد عزموا هذه المرةَ أن يقضوا قضاءً مُبرَمًا على هذه الشّرذمةِ من المسلمين ، وبخاصّةٍ ، وأنّهم سيدافعون عن أموالِهم ، وتجارتِهم ، فلقد أشعلَ المسلمون هذه الحربَ ، أو سيُشعِلونها انتقامًا من قريش ، ورغبةً في التعرّضِ لِعيرهم وتجارتِهم التي كان قد خرج في طلبِها الرّسولُ الأمينُ ، حتّى بلغ العشيرةَ ، فلم يدركْها ، ووجدَها قد سبقته إلى الشّامِ بأيامٍ . !! ولكنّه وبقيّةَ المسلمين ظلّوا يرقُبون قفولَ هذهِ العيرِ من الشّامِ ، بُغيةَ الثّأرِ والانتقامِ، فإن قريشَ



قد بالغت فى إيذاء المسلمين ، وتمادتْ فى غَيِّها ، وابتعدت عن الدّعوةِ الكريمةِ التىَ أتى بها هذا النبىُّ العظيمُ ..



إنّهم يعلمون ذلك . ويعرفون أن هزيمَتهم فى هذهِ الواقعةِ ، ستكونُ طامّةً عليهم ، ولا يزالون يَذكرون كلماتِ ضمضمَ بنِ عَمرو الغِفارى ، الذى أرسلَه أبو سفيانَ رئيسُ العِيرِ حينما دنا بالقافلةِ من الحجازِ ، وجاءته الأنباءُ أنّ محمدًا ومن آمن به سيلقَوْنه فى الطريقِ .. لقد قال ضمضمُ لقريش يستفزّهم ، ويوقدُ حميّتهم :

ـ يا أهلَ مكةَ .. يا معشرَ قريش ! اللطيمةَ اللطيمةَ ! قد تعرّضَ لها محمدٌ وأصحابُه .. وكأنما كانت هذه الكلماتُ ناقوسَ الخطرِ ، ونفيرَ الحربِ ، بعثَ القوةَ فى النفوسِ . ودفعَ الحميةَ إلى القلوبِ ، فصرخت الدّماءُ مهتاجةً فى الشّرايين ، وأذّن الشيطانُ فيهم ، فكان لصوتِه صدًى ، وكان لكلامِه رنينٌ فانبعث القرشيّون من كلّ حدَبٍ وصوبٍ ، خوفًا على العيرِ أن تُهاجَمَ ، وعلى الأموالِ أن تُسلَبَ ، وعلى الدّماءِ أن تَسيلَ .. !

وخرجَ القرشيّون صغيرُهم وكبيرُهم ، عظيمُهم وحقيرُهم ، فلكلٍّ منهم نصيبٌ فى هذه العيرِ ، إذ لم يبقَ فى مكةَ قرشيٌّ ولا قرشيّةٌ إلا لهم فيها متاعٌ .. !!

وما هى إلا ساعاتٌ حتى سُمع الصّليلُ والصّهيلُ ، والأطيطُ والثُّغاءُ ، ووُجدت الأشرافُ من قريش فى مقدمةِ الخارجين ، وأخذ

أبو لهبٍ يتراجعُ ثم يقدمُ ، وكأنما يناديه ترابُه ، ويقودُه عزرائيلُ عليه السّلامُ بشعاعٍ خفيٍّ إلى حيث يَلقَى حتفَه ، فيريحُ المسلمين..!!

وهكذا بعد مدةٍ قليلةٍ ، اكتمل عددُهم خمسينَ وتسعَمائةِ محاربٍ بين راجلٍ وفارسٍ ، وراكبٍ على بعير .. !!

* * *

وكان النبيُّ صلّى اللّهُ عليه وسلمَ قد سبقَ جيشَ الكافرين ، ومعه ثلاثُمائةٍ أو يزيدُ من صحابتِه المخلِصين ، الذين استمعوا لقولِه الكريمِ :

ـ هذه عيرُ قريش ، فيها أموالُهم ، فاخرُجوا إليها ، لعلَّ اللّهَ أن يُنفلكموها ـ أى يجعلُها غنيمةً لكم ـ من كان ظهرُه حاضرًا فليركبْ معنا..

ولم يجد المسلمون أمرًا بالوجوبِ فى كلامِ الرّسولِ الكريمِ ، وإنما رأَوْا تخييرًا ، فخرج معه بعضُهم ، وبقِىَ البعضُ منهم ينتظرُ النتيجةَ ويرجو النصرَ لجيشِ المسلمين .

وما كانت هذه القلةُ لتُضعِفَ من روحِ المسلمين ، أو تهنَ من عزيمتِهم فلقد كانوا جميعاً رجلاً واحداً أولَ الأمرِ ، هو سيدُنا محمدُ ابنُ عبدِ اللّه ، ولم يكن معه أحدٌ ، فكيف بهم الآن وهم ثلاثُمائةٍ ، وفيهم رسولُ اللّهِ ، سيدُنا محمدُ بنُ عبدِ اللّه ؟!

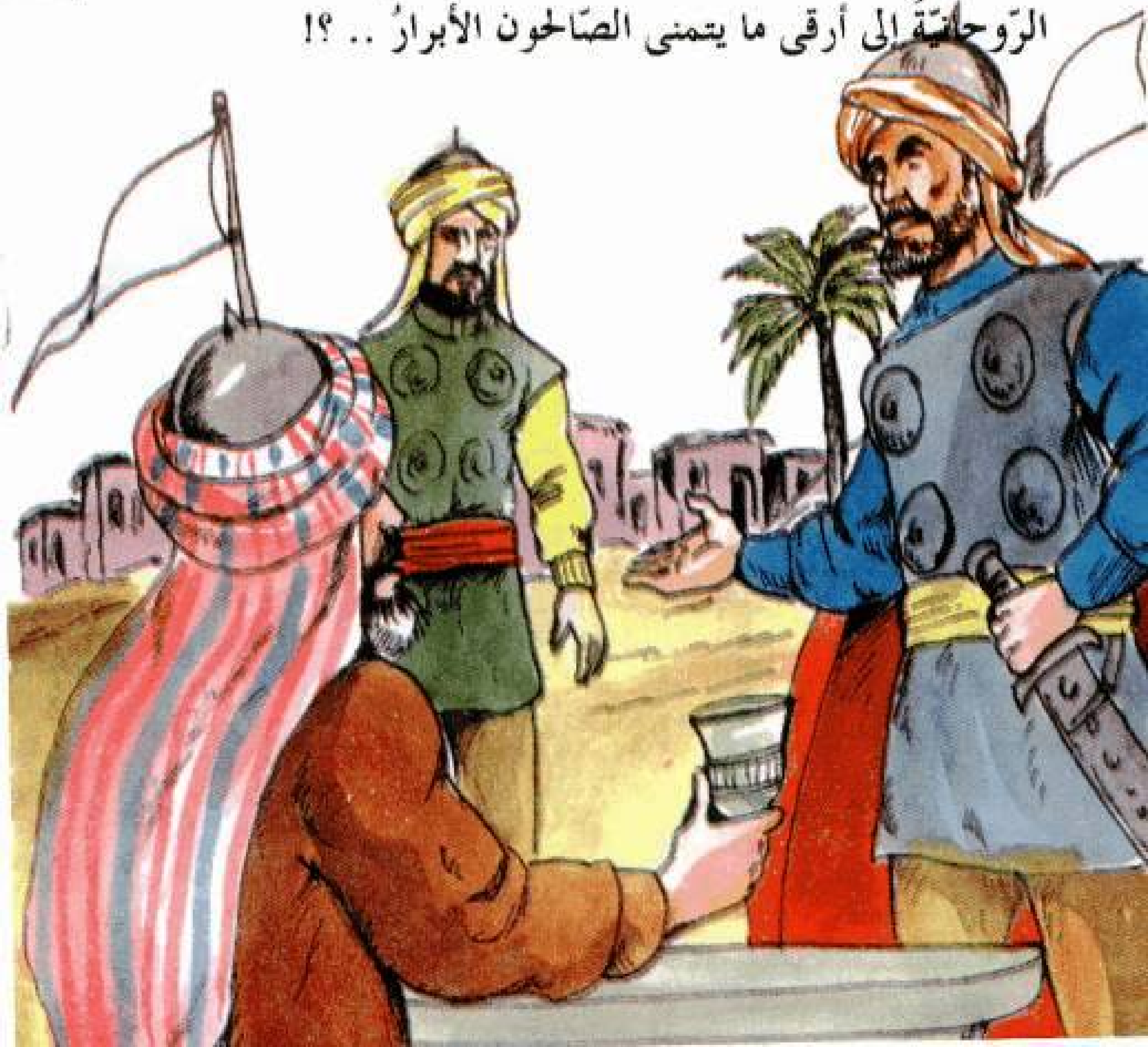
إن العبرةَ ليست بالقلّةِ والكثرةِ ، والضّعفِ والقوّةِ ، والعددِ والآلاتِ ، وإنّما العبرةُ بالقلوبِ المخلصةِ ، والنّياتِ الصّادقةِ ، والأفئدةِ النّاصعةِ الصّافيةِ . وها هم أولاءِ جاءوا بقلوبِهم نقيّةً ، وبأفئدتِهم طاهرةً ، كما خلقها اللّهُ ، وبأرواحهم فداءً للدينِ والعقيدةِ الإسلاميّةِ ، التى يَدينون بها ، والتى يتمنّون أن يدركَهم الموتُ فى سبيلِ إعلاءِ شأنِها ، ورفعةِ قدرِها ..!!

* * *



ورأى المسلمون جيوشَ الكافرينَ وفيرةَ العَددِ ، تختالُ وتُدل ، وتفخرُ وتزهو ، وترى في دروعِها السّاترةِ ، وأسلحتِها البرّاقةِ اللاّمعةِ ، قوةً ونصراً ، وفوزاً وظفرًا .

ولقد أدركَ المسلمون ما وراءَ هذه العظمةِ الزّائفةِ ، والكبرياء المقيتِ ، وعلموا أن قريشاً ما هي إلا خُشُبٌ مسنّدةٌ ، وأجسامٌ خاويةٌ ، وصورٌ حقيقتُها مؤلمةٌ ، وقلوبٌ كنهها الضعفُ والخذلانُ ، وأين هذا كلُّه من المسلمين الذين ارتفعت بهم العقيدةُ ، وسمت بهم الرّوحانيّةُ إلى أرقى ما يتمنى الصّالحون الأبرارُ .. ؟!



ولكن بعضًا من المسلمين أدركهم لونٌ من الخوفِ والوجَلِ ، فحالت وجوهُهم ، وبدا عليهم ذلك في وضوحٍ ، فعاجلهمُ الرّسولُ بالدّواءِ النّاجعِ ، والعلاجِ المفيدِ ، فقال مناجيًا ربَّه ، معتمِداً عليه ، راجيًا منه الظفرَ والنصرَ : اللّهم إن هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائِها ، وعجبِها ، وفخرِها ، تحادّك، وتخالفُ أمرَك ، وتكذّب رسولَك ، اللّهم فنصرَك الذى وعدتنى به أنجزْه .. اللّهم أمرتَنى بالثّبات ، ووعدتنى إحدى الطّائفتين ، وإنك لا تخلفُ الميعادَ.. اللّهم إن لم تهلكْ هذه العصابةَ لا تُعبدُ فى الأرضِ..

واتّجه قلبُه إلى اللّهِ اتجاهًا ألانَ القلوبَ ، وأدهش العقولَ ، واشتدَّ فى الدعاءِ اشتداداً دفع أبا بكرٍ رضىَ اللّهُ عنه أن يقولَ له ، فى شفقةٍ وحنانٍ : دَع عنك بعضَ مناشدتِك ربَّك ، إنه مُنجزٌ لك ما وعَدك به من النّصرِ.

وسمت برسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلّمَ روحُه وآمالُه ، واتّصل ما بينه وبينَ السّماءِ ، وأخفقَ قليلاً ، وأضاءت الأرضُ والسّماءُ ، هذا الخبرِ الذى يُلقَى ، وذلك الأمرِ الذى يُبرَمُ ، ثم انتبه فرِحاً مسرورًا ، وكأنما أُزيحَ عنه عبءٌ ثقيلٌ ، لا يكادُ يقومُ بحملِهِ ثمّ قال :

ـ أَبشرْ يا أبا بكر ! فقد أتى نصرُ اللّه .. !!

واستمعَ أبو بكرٍ رضيَ اللَّه عنه إلى هذا ، وهو يفرُكُ عينيه ، ويعرُكُ أذنيه ، ولكنّه علم أن هذا ما كان يشعرُ به من قبلُ . وأن اللّهَ غالبٌ على أمرِه . !

* * *

وإذا أراد اللّهُ النّصرَ لجماعةٍ فلا خاذِلَ لها أبدًا ، وإذا أراد الخذلانَ لجماعةٍ أخرى ، فلا ناصِرَ لها أبدًا .

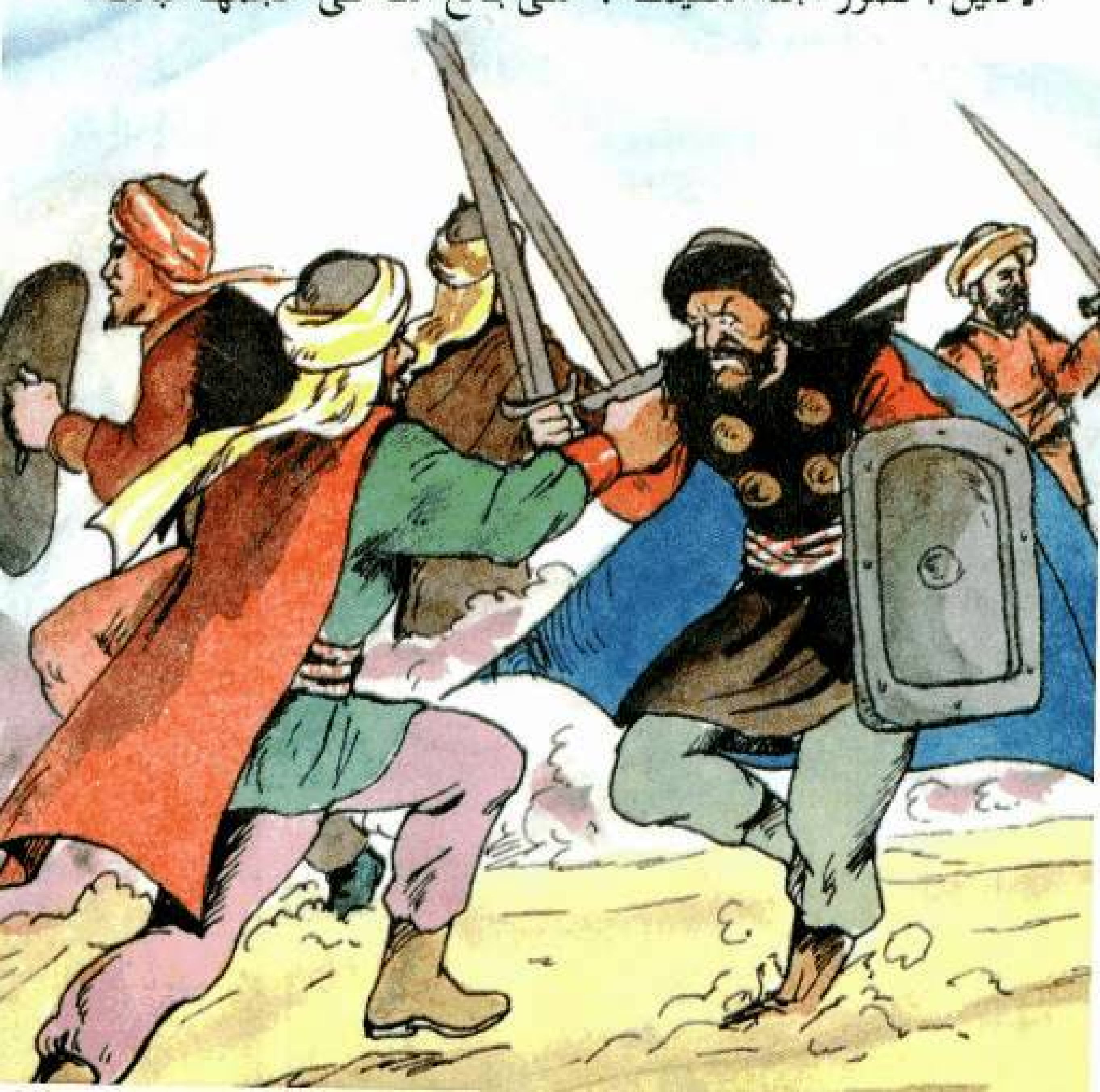
وهكذا أراد اللّهُ لهذه الفئةِ القليلةِ من المسلمين أن تنتصرَ ، فجعلهم قلّةً فى نظر المشركين قبلَ القتال ، لئلا يعرضَ المشركون ويفرّوا ، ثم حينما التحمَ الجيشان جعلهم كثيراً فى أعينِ المشركين ، فألقى الرعبَ في قلوبِهم ، وقذفَ بهم فى فيافى الخيالِ الشاردِ ، ومطارحِ الخوفِ المُميتِ ، فلم تلبثْ هذه الأعصابُ أن ضعضعت ، وهذه القلوبُ أن ضعُفت ووهَنت ، ومع هذا فالحربُ قائمةٌ تطحنُ وتدورُ . !

وارتفع صوتُ رسولِ اللّه صلى اللّهُ عليه وسلم قائلاً فى نصح :

ـ لا يقدمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دونَه .

وعندما دنا المشركون ، ورأى المسلمون هذه الكثرةَ الماحقةَ ، والعددَ الوفيرَ ، قال الرّسولُ الكريمُ مشجّعًا لهم ، مرغّباً فى الأجرِ الكبيرِ ، والثوابِ الجزيلِ ، الذى يطمعُ فيه كلُّ مسلمٍ ، ويتطلعُ إليه كلُّ إنسانٍ :

- قوموا إلى جنةٍ عَرضُها السّمواتُ والأرضُ.
وكأنما صفعت هذه العبارةُ عُمَيْرَ بنَ الحمامِ الأنصارى الخزرجى ، فانتبه من غَفلةٍ ، واستيقظَ من نُعاسٍ ، وتصوّرَ الثّمنَ والمثمنَ ، الجهادَ وما يبذلُ فيه ، والجنةَ بلذائذِها ومُتعِها ، التى أفتن اللّهُ سبحانه وتعالى فيها ، لتكونَ موطناً مريحًا ، ومكاناً مُمهّداً لأحبابه المقرّبين ، وأصفيائِه الأدنَيْنَ . تصورَ الجنةَ العظيمةَ ، حتى بالغ اللّهُ فى حجمها مبالغةً



أعطتها لوناً من الإجلالِ والإعظامِ ، وكستها ثوباً من التقديسِ والاحترامِ ، وإذا كان هذا هو العرضُ ، فما بالك بطولِها !! يا له من أسلوبٍ جميلٍ ، وبلاغةٍ ساميةٍ !! وماذا يثير الحماسةَ فى القلوبِ ، ويدفعُ الشجاعةَ إلى النفوسِ ، غيرَ هذا الأسلوبِ ، وذلك البيان ؟

إن العربىَّ لَيهيمُ بهذه الأساليبِ السامية ، وتملكُ نفسَه تلك العباراتُ البليغةُ التى تخاطبُ قلبَه ، وترنُّ فى أرجاء نفسِه من حينٍ إلى حينٍ ، فيجد لرنينها لذّةً ومتعةً ، لا يجدهما فى أىِّ لونٍ من ألوانِ الحياةِ ..

لقد ذهِل عُميرُ حينما سمع عبارةَ النبىِّ الكريمِ ، وقال فى نفسِه فى حيرةٍ وتساؤلٍ :



- أهي الجنةُ التي اشترى بها اللّهُ من المسلمين المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم ؟! إن كانت فما أحراني باهتبالِ الفرصةِ وانتهازِها ، وما أجبَنني إن نكصتُ على عقبي ، وتردَّدْتُ في الأمر ! إنها الشهادةُ إذَن ، فما معنى التّواني والتّراخي ؟!

وأراد أن يتأكدَ ، فقال مخاطبًا رسولَ اللّهِ :

- يا رسولَ اللّه ! جنةٌ عرضُها السمواتُ والأرضُ ؟!

قالها في تساؤلٍ عجيبٍ . يريدُ أن يتثبتَ من الأمرِ ، وأن يكونَ على بينةٍ منه ليمضيَ إلى حيثُ يجد مكانَه مُعَدًّا في الجنةِ مع الأنبياءِ والصّدّيقينَ والصالحينَ .

وقالَ رسولُ اللّهِ في عزمٍ وثقةٍ : نعم .. !!

ولم يقلْ سواها ، وكأنما كانت هذه الكلمةُ الرّائعةُ العجيبةُ (نعم) سرَّ الحياةِ ، والنّشاطَ والعزيمةَ الوثّابةَ التي لا تعرفُ التّخاذلَ أو التّوانيَ . بل كأنما هي أمرٌ روحيٌّ فتح لهذا الرجلِ مغاليقَ الوجودِ ، فتكشّفت له أسرارُ الكونِ ومخابيءُ الحياةِ - فاهتزّت نفسُه وهاجت مشاعرُه ، وتدفّقت في شرايينهِ دماءٌ لم يعرفْ من أين جاءت ، ولا كيف جاءت .. دماءٌ حارّةٌ غزيرةٌ ، تُلهبُ بدنَه ، وتدفعُه إلى الميدانِ شجاعًا قويًا غيرَ هيّابٍ ولا وَجِلٍ!! وانطلق لسانُه صاخبًا في ثورةٍ وفرحٍ : بَخٍ بَخٍ .. !!

لقد استعظم الأمرَ ، وأراد أن يفخمَه ويعظمَه ، كما يشعرُ به في نفسِه، ويحسُّ به في فؤادِه ، فلم يجدْ سوى هذهِ الكلمةَ يكرّرها لتدلَّ

على اهتمامِه الشّديدِ بما يعنى ، وأَبْهِه الكبيرِ بما يريد .. قالها بسرعةٍ ، فدهش لها رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلّم ، وقال مستفهِمًا :

ـ ما يحملك على قولِك بخ بخ ؟!

فقال عميرُ فى قوةٍ وعزمٍ : لا واللّهِ يا رسولَ اللّهِ ، إلا رجاءَ أن أكونَ من أهلِها .. من أهلِ الجنةِ..

فقالَ الرّسولُ الكريمُ مغريًا ومسليًا له : فإنّك من أهلِها .. !!

* * *

من أهلِها ؟!

وطافت به الفرحةُ آفاقًا رحبةً وأرجاءً واسعةً ، وكيف لا وقد سمع هذا الوعدَ ممن لا ينطقُ عن الهوى ؟ من الرّسولِ الكريمِ ؟! ولكن أيسمع هذا الوعدَ السّامى ولا يدفعُ له ثمناً ؟ .. كلاّ .. إن من الوفاء أن يُخلصَ الإنسانُ فى دفعِ الثّمنِ .. لابد أن يمضِيَ فى الجهادِ سبُعاً ضاريًا يفتكُ بالظلمِ والظّالمين ، وخطرًا داهماً يزلزلُ أركانَ البغيِ والباغين ..

من أهلِها ؟!

بُشراكَ يا عُميرُ .. وغمَره الفرحُ الغامرُ ، وشمِله السّرورُ والمراحُ ، فلمْ يدرِ ماذا يفعلُ ، وأخرج تمراتٍ من قَرَنـِهِ أى : جُعبتِهِ ، فجعل يأكلُ استرواحًا للنّفسِ ، ولفيضِ السّرورِ والفرحِ بهذه البشرى السّعيدةِ ، كما جرت بذلك عادةُ الناسِ ، فى إقبالِها على اللذاتِ والنعمِ كلما سمعت خبراً سارًا ، وطافت بها فرحةٌ غامرةٌ ..

ولكنه سرعان ما تطلّع إلى الميدانِ الرّحيبِ أمامَه . ورأى خُيلاءَ الكافرين، وزهوَ المشركين ، وما هم فيه من رخاءِ المطعمِ والمشربِ والملبسِ ، واكتمالِ العُدَّةِ والعَدَدِ ، فثارت نفسُه . واستكثرَ الحياةَ على نفسِه . وتمنى أن يعجلَ لينالَ جزاءَه بعد ما يفُت في عضُدِ هؤلاء المجرمين . وصرخ في عزمٍ :



- لئن أنا حييت حتى آكلَ تمراتى هذه . إنها لحياةٌ طويلةٌ ..

وقذف بما كان معه من التّمرِ ..

ثم اندفع إلى الميدانِ يقاتلُ ويناضلُ ، فى سبيلِ الحقِّ والعدلِ والحريّةِ ، وهو يحرص على الشّهادةِ السّاميةِ ، يناضل فى سبيلِ الموتِ ، الذى يجدُ وراءه الحياةَ الرّفيعةَ فى جناتٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ أُعدّت للمتقين ، وما أبعدَ الموتَ على الذين يريدونه ، ويطلبونه جادّين غيرَ هازلين ، وما أقربَه من الذين يخشَونه ويفرّون منه ، إنه يعاجلُهم ويسرعُ إليهم !!

ثم جاء الفرجُ الذى يرجوه عميرُ ويتمناه !!

وتُوّجت به قائمةُ شهداءِ الأنصارِ من الخزرج !!

وهتفَ هاتفٌ :

- إنكَ من أهلِها .. !!

بخٍ بخٍ لك يا عُمَيْر !

